



معرف الكائن الرقمي للمقال 10.54239/2319-021-001-005 (DOI)

المجتمع الصليبي في بلاد الشام
منذ الحملة الصليبية الأولى حتى فتح بيت المقدس
(491 – 583 هـ / 1096 – 1187 م)

The crusader society in the Levant
Since the first crusade until the conquest of Jerusalem
1096-1187 ad) (491-583 H /

ط. د. رحمة رواق *

جامعة 8 ماي 1945 قالمة – الجزائر-

rouag.rahma@univ-guelma.dz

أ.د. كمال بن مارس

جامعة 8 ماي 1945 قالمة – الجزائر-

benmarce.kamel@univ-guelma.dz

تاريخ الإرسال: 2021/12/19 تاريخ المراجعة: 2021/12/25 تاريخ القبول: 2022/03/08

الملخص:

إن الغزو الصليبي لبلاد الشام كان يهدف منذ البداية لغرس جذور مجتمع صليبي دخيل على البلاد الإسلامية و الاستيلاء على المقدسات فيها، و جعله صاحب الأرض بحجة تحرير القبر المقدس و المسيحيين الشرقيين من أيدي المسلمين، غير أن ذلك المجتمع الذي نشأ فوق أرض الشام كان مجتمعا غريبا على هذه الأرض ووسط مجتمع إسلامي عمل جاهدا على لفظه، فظل الصليبيون طوال فترة تواجدهم مجتمعا عسكريا يسعى للبقاء مستغلا تشتت المسلمين و تفرقهم .

* طالبة دكتوراه علوم ، جامعة 8 ماي 1945 قالمة / الجزائر



و قد اشتهر في تكوين هذا المجتمع عدد كبير من جنسيات أوروبية مختلفة و طبقات اجتماعية متباينة، إلى جانب السكان المحليين، حيث شكل الفرنسيون العنصر الغالب في هذا المجتمع الصليبي حتى أطلق العرب اسم "الفرنجة" كتعبير على كافة الصليبيين، إلى جانب الإيطاليين الذين سكنوا السواحل الشمالية واستغلوا الحروب الصليبية لتحقيق مكاسبهم التجارية، إلى جانب أقلية من النورمان و الألمان و الإنجليز، كما ضم هذا المجتمع فئات متنوعة من السكان المحليين على رأسهم المسيحيون الشرقيون (الموارنة و الأرمن و السريان و الروم الأرثوذكس) الذين ظنوا أن قدوم الصليبيين سيرفع من شأنهم، غير أنهم سدوا بهم فراغ المهن التي أنفوا القيام بها و صنفوهم أقل منهم درجة بل و جندوهم في الصفوف الأولى للجيش الصليبية، غير أنهم كانوا أحسن حالا من المسلمين و اليهود الذين عاشوا الذلة و المسكنة داخل المجتمع الصليبي حتى أتى فتح صلاح الدين لبيت المقدس فذاقوا العزة بعد الذلة.

الكلمات المفتاحية: المجتمع الصليبي ؛ المسيحيون الشرقيون؛ الموارنة؛ الصليبيون ؛ الأرمن؛ الإيطاليون؛ المسلمون؛ اليهود .

Abstract :

The crusader invasion of the Levant was aimed from the beginning to implant the roots of a crusader on Islamic countries , and to seize the sanctities in them , and he made him the owner of the land under the pretext of liberating the holy sepulcher and the Eastern Christians from the hands of the muslims , however , that society that arose on the land of the Levant was a strange society on this land in the midst of an Islamic society that worked hard on its wording .

A large number of different European nationalities and different classes participated in the formation of this society , along with the local population , as French formed the dominant element in this crusader society until the Arabs were called "the franks" as an expression for all the crusaders , in addition to the Italian who inhabited the Livantine coasts and took advantage of the crusades to achieve their commercial gains , along with the Normans , Germans and English ,this community also included various groups of the local population , headed by the (Maronites ,the Armenians , the Syriacs and the Greek Orthodox) who thought that the coming of the crusaders would raise their status , However, with them they filled the void in the profession that they refused to perform , categorizing them as inferior to them , and even

recruiting them in the first ranks of the crusader armies , except that they were better off than the muslims and the Jews within the crusader society until the conquest of Salah al-Din came to Jerusalem , so they tasted honor after the humiliation .

Keywords : Crusader Society ; Eastern Christians; The crusader; Maronites ; the Armenians ; the Italian ; the muslims ; the Jews.

مقدمة:

استحوذت فترة الحروب الصليبية على اهتمام المؤرخين الغربيين والشرقيين على حد سواء، فقد اختلفت عن مثيلاتها من الحروب بطول أمدتها وتعدد عناصرها وتناقض أهدافها وتنوع لغات المشاركين فيها، كما مكنت هذه الحروب الصليبيين من تأسيس مجتمع صليبي في بلاد الشام له دعائم وركائز ثابتة حمل بداخله التقاليد الغربية الأوروبية المتأثرة بالشرق الإسلامي مع بعض العادات والأعراف البيزنطية.

لقد سعى الصليبيون منذ الوهلة الأولى التي استوطنوا فيها بلاد الشام إلى تكوين مجتمع مستقل بذاته لديه عاداته وتقاليده وطقوسه المختلفة برغم ما كانت عليه جموع المشاركين في الحروب الصليبية من اختلاف وتباين، فقد كان قوام المجتمع الصليبي خليطا من الأجناس والقوميات واللغات والأديان ما بين غربيين وشرقيين مع تفاوت بينهم في المظاهر الاجتماعية والدرجة الثقافية، تمكنت فقط تلك القوانين التي وضعها الصليبيون من أن تجعله مجتمعا متوازنا إلى حد بعيد.

يعتبر المجتمع الصليبي قبل غزوه للعالم الإسلامي جزء من أوروبا في العصور الوسطى سكانا وثقافة، وذلك لأن الصليبيين اقتحموا العالم الإسلامي غزاة محاربين في المقام الأول، فقد كان مجتمعهم مجتمعا عسكريا بكل ما تحمله الكلمة من معنى لذا فقد اختلف قليلا عن المجتمع الأم في أوروبا، رغم تبنيه نظام الاقطاع الأوروبي وحمله للأفكار الأوروبية السائدة حينئذ.

فما هي طبيعة المجتمع الصليبي ؟ وما أهم عناصره السكانية، وكيف تمكن هذا العنصر الدخيل الذي قدمت أغلب عناصره من قارة أوروبا من تكوين مجتمع متماسك

في قلب العالم الإسلامي؟ وهل لضعف المسلمين وتفرقهم دور في تثبيت جذور هذا الكيان الدخيل ببلاد الشام؟

ومن أهم أهداف البحث دراسة تكوين المجتمع الصليبي في بلاد الشام وأهم الفئات السكانية المكونة له والتي وفدت من أوروبا واستوطنت السواحل الشامية بعد غزوها للمنطقة، والدور الذي لعبته كل فئة في تثبيت الوجود الصليبي ببلاد الشام إضافة إلى السكان المحليين في المجتمع الصليبي، ومختلف العلاقات التي نشأت بين الصليبيين داخل الإمارات الصليبية والعناصر السكانية الأخرى.

1- عناصر السكان في المجتمع الصليبي:

1-1/ المسلمون

يمثل المسلمون السمة الغالبة في العناصر الوطنية صاحبة البلاد الأصلية في المجتمع الصليبي، حيث كان الإسلام هو عقيدة الحكام و أغلبية سكان بلاد الشام، ومع توطن الفرنج في الشرق وتأسيس إمارات صليبية، على رأسها مملكة بيت المقدس طُرد المسلمون من أراضيهم وحل محلهم الصليبيون الذين شاركوا في الحملة الصليبية الأولى وأصبحوا هم أسياد الأرض (براور، 2001، صفحة 77).

غير أن بعض الآلاف من الجنود والمنتبذين في المجتمع لم تغير من غالبية المسلمين في بلاد الشام رغم تمركز مملكة الفرنج فيها، ويعود هذا لأن تلك الحملات القادمة من الغرب الأوروبي كانت ما إن تؤدي مهمتها سواء أكانت الحجج أو القيام بغارات لضم المزيد من الأراضي للصليبيين، حتى تعود أدراجها إلى مواطنها المختلفة لذا فقد ظل عدد الصليبي محدودا في بلاد الشام.

وعلى الرغم من أن بعض المدن التي هجرها أهلها من المسلمين بسبب المجازر التي خلفها الغزو الصليبي وما أعقب ذلك من عمليات طرد السكان الأصليين، فإنه من الثابت أن نسبة كبيرة من المسلمين ظلت قائمة في وسط المجتمع الصليبي وتُأثر فيه و يؤكد الرحالة ابن جبير عند مروره بالأراضي الصليبية على غلبة السكان المسلمين على غيرهم داخل مملكة بيت المقدس عموما (ابن جبير، د.ت، صفحة 234)، فقد عاد الكثير من المسلمون ثانية ليستقروا في المدن الصليبية وكانت القدس هي الاستثناء

الوحيد لأن الصليبيين أصدروا قرارا أنه من الرجس أن يعيش في المدينة التي شهدت آلام المسيح أولئك الذين دنسوا اسمه (براور، 1999، صفحة 76)

ولعل حرص المسلمين على التمسك بأوطانهم وإيثارهم البقاء فيها والسعي لاسترداد أراضيهم التي سلمها منهم الصليبيون هو ما جعلهم يتحملون اضطهادات وإيذاء الصليبيين لهم، فالغزو الصليبي لبلاد الشام قد نزل بمسلميها من مكانتهم الاجتماعية كطبقة حاكمة مالكة لغالبية أراضيها إلى الطبقة الدنيا التابعة التي كانت بالكاد تكسب قوت يومها، ما تسبب في اختلال القوى الاجتماعية إذ تحول المسلمون إلى أقليات في المدن وأقنان في الأرياف (سميل، 1985، الصفحات 98-99).

غير أن العقد الثاني من عمر المملكة الصليبية قد شهد تحول ملحوظ في السياسة الصليبية التعسفية القائمة على إبادة السكان والطردهم والتهميش القصري، حيث حاول أفراد طبقة النبلاء منع عمليات النهب والسلب لأهالي المدن التي تم الاستيلاء عليها وفضل هؤلاء النبلاء استلام المدن بأسواقها التجارية العامرة دون أن يلحقها الدمار (براور، عالم الصليبيين، 1999، صفحة 67)، ففي سنة 504هـ/1111م وافق الملك بلدوين الأول على خروج حامية صيدا لاستخدامهم في الزراعة، وحدث نفس الشيء عند استيلاء الفرنج على صور 518هـ/1124م حيث خرج منها من أراد الخروج ومن أراد البقاء في المدينة أمكنه البقاء وأن تضمن منازلهم وممتلكاتهم (الشارتري، 1990، الصفحات 148-215).

ويرجع التغيير في السياسة الصليبية تجاه المسلمين إلى العوامل الاقتصادية، وإلى إدراكهم لأهمية العنصر السكاني المسلم، واعتمادهم على المسلمين كطبقة عاملة في مجالات الزراعة والصناعة والبناء، وهكذا حين خفت وطأة الصليبيين على المسلمين أخذ بعض الذين هاجروا في العودة بعد أن اشترط عليهم الصليبيون تقديم الطاعة والولاء للفرنجة وتأدية الضرائب (السيد علي، 1996، صفحة 51)، ورغم تحسن العلاقات الاجتماعية المختلفة بين المسلمين والصليبيين داخل المجتمع الصليبي إلا أن الحذر لازم تلك العلاقات خشية الفتنة وتجنباً لكثير من أنماط السلوك السلبي التي اعتاد عليه الصليبيون في البلاد الخاضعة لسيطرتهم (ابن جبير، د.ت، الصفحات 279-280).

وقد انقسم المسلمون في بلاد الشام حسب مذهبهم إلى سنة و شيعة، دانت الأولى بالولاء للخليفة العباسي ببغداد، و دانت الثانية للخليفة الفاطمي بالقاهرة (محمد عبد النبي ، د.ت، صفحة 57)، كما يمكن تقسيمهم حسب أصولهم إلى قسمين قسم يرجع إلى أصل عربي خالص والقسم الآخر انحدر من أصول غير عربية دانت بالإسلام منذ أمد بعيد أمثال الأتراك و الأكراد .

كان المسلمون يعيشون في مدن وأرياف بلاد الشام و لكنهم في الوقت الذي كانوا يشكلون فيه أقلية في المدن الصليبية كان عددهم كبيرا في المراكز العمرانية الصغيرة ، فقد كان الريف كله مسلما، واستمرت التجمعات القروية الإسلامية تعمل تحت الحكم الصليبي، كما ظلت الحياة الاجتماعية الأساسية كما هي على الرغم من أن الدولة الإسلامية فقدت سيادتها وسلطتها (براور، عالم الصليبيين، 1999، صفحة 77)

سكن أغلب المسلمين الأرياف واشتغلوا بالزراعة وفلاحة الأرض وبذلك ظلوا على أنشطتهم الأولى التي كانوا يمارسونها قبل الغزو الصليبي لبلاد الشام، فقد قام الصليبيون بتقسيم الأراضي التي كانت بحوزة المسلمين فيما بينهم واستخدموا المسلمين في زراعتها (عبد الله الأحمد، 2016، الصفحات 47-48)، واعتمدوا عليهم في توفير غذائهم، لذلك فقد عاش مسلمو القرى في مملكة بيت المقدس في ظل نظام إقطاعي لاتيني يمتلك فيه السيد الإقطاعي الأرض بمن عليها وبذلك تحول عدد كبير من المسلمين بعد الغزو الصليبي إلى ما يقرب من مرتبة العبيد بعد أن سلمهم اللاتين ما كانوا يملكونه وأصبحوا يعملون لديهم بعد أن كان كثير منهم ملاكا ، غير أن مسلمي مملكة بيت المقدس كانوا أفضل حالا من مسلمي أنطاكية الذين عانوا الويلات من سادتهم اللاتين الذين فرضوا عليهم ضرائب ثقيلة (محمد عبد النبي ، د.ت، الصفحات 62-64)

وتركزت الحياة الدينية في القرى حول المساجد الصغيرة واستمر القضاء و العلماء يباشرون خدماتهم الدينية وغير الدينية لأنه لم يكن ممكنا الاستغناء عنهم في شؤون الزواج والميراث وقد نجت بعض المساجد حتى في المدن الكبيرة من التحويل إلى كنائس وظلت بأيدي المسلمين، كما اعترف الصليبيون بالسلطة التقليدية للشيوخ ومنح شيخ القبيلة نوعا من السلطة وكان هو الذي يمثل القرية في التعامل مع الحاكم الصليبي (ابن جبير، د.ت، صفحة 302).

وإذا كانت غالبية سكان القرى في مملكة بيت المقدس من المسلمين، فقد كانوا في المدن أقلية وعاشوا في تجمعات و أحياء خاصة بهم في المدن الكبرى مثل عسقلان ويافا وطبرية وعكا، ومثل سكان المدن عامة فقد عمل المسلمون بالحرف والتجارة وصناعة الفخار والخزف والنسيج والصابون والزجاج والسكر، وغيرها كما كانت ظروفهم الاجتماعية أفضل من سكان القرى حيث تمتعوا بشيء من الحرية (محمد عبد النبي ، د.ت، صفحة 61)

كان وضع المسلمين تحت الحكم الصليبي متديا وبخاصة أوضاع الأسرى المسلمين والعبيد، فالواقع أن الصليبيين لم يتوانوا عن استغلال قدرات هذه الطبقة سواء كخدم في قصورهم أو دورهم أو حتى كعمال وحرفيين لديهم خاصة وأغلب أسرى الحرب من المسلمين كانوا من ذوي المهارات الحرفية كبنائين و نجارين و غيرها من المهن الحضارية حيث استغلهم الصليبيون في بناء وتشيد قلاعهم وقصورهم.

لقد اتصفت حياة المسلمين داخل المجتمع الصليبي بالذلة والمسكنة كما وصفها ابن جبير (ابن جبير، د.ت، صفحة 238) في رحلته، فمعاناة المسلمين تركت انطبعا سيئا في نفسه لذلك أوصى بالحذر من دخول بلاد الافرنج والله تعالى المسؤول حين الإقامة، كما ذكر الاصفهاني الآثار النفسية والاجتماعية المترتبة عن فتح صلاح الدين لعدد من المدن الشامية سنة 583هـ/1187م بأنهم ذاقوا العزة بعد الذلة، وقد شارك السكان المسلمون في المدن والقرى في المقاومة العنيفة ضد الحكم الصليبي فامتنعوا عن زراعة الأراضي و أحدثوا دمار و خراب في القطاع الزراعي (الأصفهاني، 2004، صفحة 73)، و قد تفتن وليام الصوري إلى غلبة العنصر المسلم في المجتمع الصليبي وما يشكله ذلك من خطورة كبيرة على الصليبيين وحذر بني جلدته منهم بقوله " لا يمكن لوباء أن يضر الانسان بشكل فعال أكثر من العدو الجاثم على بابه" (الصوري، 2003، صفحة 471).

1-2- الو افدون من أوروبا:

لقد اشترك في تكوين المجتمع الصليبي ببلاد الشام عدد كبير من الرجال و النساء من جنسيات أوروبية مختلفة وطبقات اجتماعية متباينة وظهر ذلك التباين بشكل واضح في التجمعات الصليبية، فالجيوش الصليبية التي توجهت إلى بلاد الشام قد ضمت فئات من عناصر أوروبية متنوعة (عبد الله الأحمد، 2016، صفحة 1) أهمها:

الفرنسيون والنورمان والانجليز والنمساويون والبروفنساليون والهنغارون والبوهيميون والاسكندنافيون والبلغار والفلمنك والجنوة والبيازنة والنرويجيون وغيرهم (بورشارد، 1995، صفحة 171).

وإلى جانب هؤلاء فقد جاء من غرب أوروبا عدد كبير من الأوباش و فئران أرضة الموائى و المتسكعون والصوص والشحاذون والمشعوذون والمغامرون وخريجو السجون والهاربون من وجه العدالة والمجرمون السابقون وأراذل أوروبا وكل أولئك أتوا تحت شعار الحروب الصليبية (محمد الحويري، 1979، صفحة 49)

ولاريب أن تلك الشعوب التي عجت بها أرض الشام جعلت المجتمع الصليبي متعدد الأجناس حيث وصفه الرحالة الأوروبي يعقوب الفيتري (الفيتري، 1998، صفحة 96) " وكانت الأرض المقدسة تمتلئ بمختلف الأجناس من البشر على مختلف أممهم وألستهم " ورغم الاختلاف والتباين العرقي بين عناصر المجتمع الصليبي إلا أنهم ما لبثوا أن استقروا في بلاد الشام وأخذوا ينسجمون مع بعضهم البعض، حيث يذكر المؤرخ الصليبي فوشيه الشارترى (الشارترى، 1990، صفحة 218) " أولئك الذين كانوا غربيين أصبحوا الآن شرقيين، ومن كان رومانيا أو فرنجيا قد تحول في هذه البلاد إلى جليلي أو فلسطيني، ومن أتى من الراين أو شارتر أصبح الآن مواطنا في صور أو أنطاكية و قد نسينا الآن أمكنة ولادتنا فهي غير معروفة لدى الكثيرين منا الآن، ولا يرد ذكرها ".

لقد كانت أهم العناصر الأوروبية وأغلبها في المملكة اللاتينية العنصر الفرنسي وذلك لأن الطابع العام لأكبر حملة وفدت على بلاد الشام و نقصد الحملة الصليبية الأولى كان طابعا فرنسيا، وقد ظهر أثر ذلك عندما استقر الصليبيون بالشام، إذ سرعان ما ذبلت العلاقات الإقطاعية التي ربطتهم بإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة وأقاموا ملكية جديدة في بيت المقدس وفق النظم والتقاليد الفرنسية، وبسبب تغلب العنصر الفرنسي أصبحت لغة التخاطب في مملكة بيت المقدس وأنطاكية وإمارة طرابلس لغة شمال فرنسا، "Langue D'oeil" (محمد الحويري، 1979، صفحة 50).

ويعزى أيضا انتشار اللغة الفرنسية أن أطلق العرب اسم "الفرنجة" على الصليبيين جميعا، وفي بداية الحركة لوحظ أن الفرنسيين اعتزوا بعنصرتهم، وأنه كان لديهم



شعور باختلافهم عن العناصر الأخرى مثل الانجليز والألمان والإيطاليين، ويبدو أن هذا الشعور ناجم عن كثرة عددهم في المملكة وسيطرتهم على الملك منذ البداية وتوارثهم له (Godfrey جودفري ثم Baldwin I بلدوين الأول أخ جودفري و Baldwin بلدوين الثاني ثم الثالث...) وعلى الرغم من أن الفرنسيين كانوا أحد العناصر الأوروبية التي استأثرت بنصيب الأسد في السيطرة على المملكة، إلا أنهم كانوا مفضلين على غيرهم من العناصر الأخرى لتعايشهم مع الشعوب التي حكموها و تبنوا عاداتها وملبسها وتعلموا لغتهم، حتى الفن في الأرض المقدسة غلب عليه الطابع الفرنسي وقد ظهر ذلك جليا في كنائس الصليبيين .

أما الانجليز فقد كانت مشاركتهم في الحملة الصليبية الأولى هامشية بسبب تلك النزعات التي كانت بين البابوية و المملكة الانجليزية وإصدار عقوبة الحرمان البابوي عليها، غير أنه مع توالي الحملات الصليبية وأفواج الحجاج على المملكة ازداد عدد الانجليز وازدادت مشاركتهم في الحروب الصليبية، وقد اعتبر الفرنسيون و الانجليز من أعظم العناصر نفعا في الدفاع عن الهدف الصليبي (عبد المجيد عبد القوي، 1996، الصفحات 90-91) .

كما شارك النورمان في الحرب ضد المسلمين من الوهلة الأولى واستوطن أغلبهم إمارة أنطاكية وانتشر الباقون في الإمارات الأخرى خاصة المملكة المقدسة التي شملت ذلك الوقت جميع الأجناس الأوروبية لقداستها عندهم (بن موسى، صفحة 67) أما الألمان فقد استقروا على شكل جماعات قليلة منهم في مدينة بيت المقدس حيث أقاموا حيا خاصا بهم كما كانت لهم في المدينة كنيسة وفندق، و يظهر ذلك جليا في استياء الحاج الألماني يوحنا فورزبورغ الذي زار بيت المقدس حوالي 571هـ/ 1175م واكتشف أنه لم يكن للألمان دور في مجتمع الفرنج (فورزبورغ، 1997، صفحة 75).

كان للعنصر الايطالي دوره في تكوين المجتمع الصليبي، وأول جالية إيطالية كانت موجودة ببلاد الشام هي الأمالفيون سكان مدينة Amalfi أمالفي الإيطالية حيث كانوا أنشط العناصر التجارية الأوروبية حتى قبل الحروب الصليبية بعدة قرون، فمنذ بداية القرن السادس الميلادي وفدوا إلى السواحل الشامية، وفي القرن العاشر الميلادي

استفاد تجار أمالفي من حماية الإمبراطورية البيزنطية لهم، فأسسوا علاقات تجارية مع مصر والشام ما ساعد على تدفق العديد من حجاج أمالفي إلى الشام وفي سنة 473هـ/1080م أقام الأمالفيون نواة منظمة الإستبترية (محمد الحويري، 1979، صفحة 52).

وبرغم أنه لم يثبت مشاركة الأمالفيين في الحملات الصليبية إلا أنهم اشتركوا في التجارة التي انتعشت بسببها، ولعل السبب في عدم مشاركتهم بشكل فعال هو العلاقات التجارية المتميزة مع مصر والتي جعلتهم لا يقدمون على هذه المغامرة غير مأمونة العواقب، غير أنهم تمكنوا من المحافظة على ممتلكاتهم القديمة في أنطاكية وبيت المقدس بعد الحملة الصليبية الأولى، وعلى الرغم من سبق مدينة أمالفي في ممارسة التجارة مع مدن الساحل الشامي قبل المدن الإيطالية الأخرى غير أن الحروب الداخلية في إيطاليا أنهكتها وأضعفت جهودها التجارية، لذا جاءت مشاركتها ضئيلة مقارنة مع المدن الإيطالية الأخرى (براور، 2001، الصفحات 34-37).

ومن أبرز المدن الإيطالية التي شاركت في تكوين المجتمع الصليبي كذلك مدن (Venise البندقية و Génés جنوة و Pise بيضا)، والتي لعبت دورا هاما في أحداث الحركة الصليبية ببلاد الشام، حيث ساندت الصليبيين بشكل فعال منذ انطلاق الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق، وذلك عن طريق نقل الفرسان الصليبيين بسفنتهم، إضافة إلى الأسلحة والمؤن والإمدادات، ولم تكتف المدن الإيطالية بذلك بل شاركت مشاركة حقيقية بتقديم المساعدة العسكرية للصليبيين في الاستيلاء على الموانئ البحرية للسواحل الشامية كما ساهمت الإمدادات المتتالية - فيما بعد - بالفرسان والأسلحة والسكان إلى تمكن الصليبيين من إقامة مستعمرات دائمة في بلاد الشام، حيث لعبت المدن الإيطالية دور وسيلة الاتصال والإمداد بين الظهير الأوروبي والمستعمرات الأوروبية الجديدة في الشرق (الطحاوي، 1999، صفحة 73).

والحقيقة أن المدن الإيطالية لم تُقدم على مساعدة الصليبيين إلا لتحقيق مكاسب تجارية على حسابهم بالاستيلاء على تجارة الشرق واحتكار منتجاته وإقامة مستودعات تجارية و متاجر مختلفة على السواحل الشامي وكذا الحصول على امتيازات واسعة في موانئ الشام ومدنه الصليبية، لذلك فإن الإيطاليين أكثر من انتفع من الحروب

الصليبية، فكانوا هم أصحاب السفن التجارية وأصحاب الموانئ البحرية (الباز العرني، صفحة 13).

وكانت جنوة أولى المدن الإيطالية التي قدمت العون العسكري للصليبيين (الصورى، 2003، صفحة 303)، فقد ساند الأسطول الجنوي فرسان الحملة الصليبية الأولى على إحكام الحصار على مدينة أنطاكية سنة 490هـ/1097م وفي مقابل ذلك منحهم بوهيمند العديد من الحقوق والامتيازات كامتلاكهم سوق وكنيسة في المدينة واعفاءهم من جميع الرسوم وغيرها، وقد اعتبرت هذه الاتفاقيات فقط البداية لجملة الامتيازات التي استطاعت جنوة الحصول عليها في بلاد الشام، حيث كفلت المعاهدات للجنويين إقامة منشآت في يافا وعكا وقيسارية وأرسوف وصور وحتى بيروت (أرشيبالد، د.ت، صفحة 282).

وكان من أبرز المدن الإيطالية التي شاركت في تكوين المجتمع الصليبي مدينة البندقية، حيث شارك أول أسطول بندقى في حصار مدينة حيفا والاستيلاء عليها عام 493هـ/1100م، وأصبح ميناءً ثانياً لمملكة بيت المقدس بعد ميناء يافا، وقد فرح جودفري بوصول البنادقة لحاجته للدعم البحري ووافق البنادقة على مساعدته مقابل أن يكون لهم امتياز يشتمل على كنيسة و مكان للسوق وإعفاء من الرسوم ومشاركتهم في ثلث أية مدينة يتم غزوها مستقبلا، و بفضل البنادقة تمكن الصليبيون من الاستيلاء على العديد من المدن الساحلية منها صور وصيدا، وعليه فقد استطاعت البندقية أن تحقق لنفسها مركزا لا مثيل له في الشرق (ابراهيم ماير، 1985، صفحة 128).

وكان التجار البيازنة من بين أهم عناصر سكان المجتمع الصليبي، حيث لعبت مدينة بيزا دورا عسكريا وتجاريا مؤثرا إبان الحملات الصليبية على بلاد الشام، ما جعل الحكام الصليبيين في بيت المقدس أو حتى الامارات الصليبية الأخرى طرابلس وأنطاكية يقدمون لها الكثير من الامتيازات داخل مدنها، منها شارع في أنطاكية وحي في اللاذقية إلى جانب حرية التجارة والعمل في جميع موانئ أنطاكية و حصلوا كذلك على حقوق وأراضي في بيت المقدس ويافا وصور وعكا وطرابلس.

سكن الإيطاليون المدن الساحلية منذ بداية التواجد الصليبي في بلاد الشام، كما حرصوا على أخذ أكبر قدر من الامتيازات فيها مقابل ما أسدوه من خدمات للصليبيين

ورغم ما حصل عليه الايطاليون من امتيازات في المدينة المقدسة إلا أنهم فضلوا الاستقرار بالمدن الساحلية لتسهيل مبادلتهم التجارية مع المملكة اللاتينية وحتى المسلمين، على أن المستعمرات التجارية في كل مدن المملكة باستثناء عكا لم يتجاوز عدد أفراد الواحدة منها بضع مئات من الأشخاص. (هايد، 1985، صفحة 149)

ويمكن القول أن البنادقة والبيزانة والجنوية، قد حافظوا على هويتهم أكثر من معظم الصليبيين وذلك لأنهم استقروا في الأحياء التي خصصت لهم في المدن الساحلية وكونوا لأنفسهم جاليات في هذه الأحياء، وقد تمتعت هذه الجاليات بالاستقلال السياسي والاقتصادي والقضائي في قلب المجتمع الصليبي فكانت بمثابة شكل من أشكال الكوميونات (أنظر التعليق رقم 1) فيما وراء البحار، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أنهم كانوا يسافرون من وإلى إيطاليا على الدوام (بردج، 1985، صفحة 120).

عاش على أرض بلاد الشام زمن الحروب الصليبية العديد من الجنسيات التي انتمت إلى جميع أنحاء أوروبا جاءت مدفوعة بدوافع عديدة منها الغزو وتأدية الحج والهجرة والتجارة والمغامرة وغيرها، و بذلك صارت بلاد الشام مجتمعا عالميا (محمد الحويري، 1979، صفحة 54).

1.3- المسيحيون الشرقيون:

لقد كان المجتمع الصليبي ومنذ استيلاء الصليبيين على بيت المقدس بتاريخ 22 جمادى الثانية 492هـ/15 ماي 1099م يعاني من نقص حاد في السكان، خاصة بعد أن قرر معظم الصليبيين العودة إلى بلادهم بعد أن أتموا رحلة الحج، وقدر عدد العائدين إلى أوروبا بحوالي عشرين ألفا وبحلول عام 493هـ/1100م لم يكن في مملكة بيت المقدس سوى ثلاثمائة فارس، ونفس العدد من المشاة الذين تركوا لحراسة مملكة بيت المقدس ويؤكد وليام الصوري ذلك بقوله (الصوري، 2003، صفحة 318) «وكان سكان قطرنا قليلي العدد قلة ملحوظة ويعيشون في فقر مدقع حتى أنهم كانوا أقل من أن يشغلوا شارعاً واحداً من شوارعنا». فقد تصورت العناصر التي كونت الحملة الصليبية الأولى أنهم بمجرد الاستيلاء على مدينة بيت المقدس، من أيدي المسلمين أن مهمتهم ورحلة حجهم قد انتهت و عليهم الرجوع إلى ديارهم (ريلي سميث، 1999، صفحة 46).

ويبدو أن هذا الخلل الذي حدث في توطين سكان بيت المقدس قد جعل الفرنج غير قادرين على القيام بما تحتاجه المملكة من أعمال، كما لم يكن هنالك عدد كاف حتى لحراسة مداخل المدينة و الدفاع عن أسوارها وأبراجها خاصة و أن السكان الأوربيين لم تكن تجذبهم العاصمة (أنظر التعليق رقم 2)، فزحفوا إلى المدن الساحلية الأكثر رخاء و كانت من نتائج ذلك أن هدد الفاطميون مدينة بيت المقدس وهي شبه خاوية لتغيب بلديين الأول (493 – 512هـ / 1018-1100 م) و رجاله عنها عندما كان يرد هجوما للسلاجقة على إقليم الجليل عام 507هـ / 1113م (الصوري، 2003، صفحة 318).

ولم يكن فقدان الأمن الدافع الوحيد الذي أدى إلى هجرة الفرنجة من القدس و إنما كان لظروف المدينة الاقتصادية أثر كبير في ذلك، فإمكانية كسب الفرنجة الذين استوطنوا المدينة رزقهم في المدينة المقدسة كان محدودا جدا، فقد كان هؤلاء الفرنجة في معظمهم من أصول فلاحية أوروبية وليست لديهم المهارات الحرفية التي تمكنهم من المساهمة الفعالة في الحياة الاقتصادية للمدينة والاندماج فيها، ذلك أن اقتصاد المدينة في الأغلب لا يعتمد على الزراعة وما يرتبط بها وإنما تعتمد حياة سكانها على الحرف اليدوية والخدمات المختلفة التي يكثر طلب الحاج الزائر عليها، و لم يكن غالبية السكان الجدد ممن لديهم المعرفة أو الخبرة في أي منها.

وقد عانت مدينة بيت المقدس و حتى باقي الامارات الصليبية في بادئ الأمر من قلة أعداد الصليبيين، وذلك جراء السياسة التي اتبعها جودفري البولوني (453-493هـ/ 1060-1100م) من تفرغ المدينة عن طريق القتل و الطرد لأهم عناصر سكانها السابقين، فالمسلمون قتل معظمهم و طرد من تبقى منهم، و كذلك كان مصير اليهود أما النصارى المحليون فقد غادروا المدينة قبل بدأ الحصار لخوف المسلمين من غدرهم ولم يسمح الفرنجة بعودتهم إليها، ولم يبق في القدس إلا المحتلين الجدد من الفرنجة الذين استولوا على منازل المدينة و امتلكوها بما فيها من متاع (الشارتري، 1990، صفحة 76). ومن هنا أولى الملك بلديين الأول أمر تدمير مدينة بيت المقدس عناية خاصة وراح يدبر الأمر في ذهنه، وكان الحل في أولئك النصارى الشرقيين الذين سكنوا شرقي الأردن وقد كان الملك بلديون قد تعرف على أوضاع هذه المنطقة أثناء الحملات التي قادها إلى جنوب شرق الأردن ما بين (509-510هـ / 1115-1116م)، لذلك فقد أرسل إليهم في

القدوم للإقامة بالمدينة واعدا إياهم بحياة أفضل من التي كانوا يعيشونها (الصوري، 2003، صفحة 317)، وقد كانت تلك العناصر المسيحية تشكل عشائر كبيرة العدد بالمقارنة مع أعداد الصليبيين .

وقد تم تنظيم مشروع هجرة جماعية على نطاق واسع، وفتحت أبواب المملكة أمام المسيحيين المحليين من موازنة و سريان و أرمن و روم أرثوذكس، كما ورافقهم جماعات أخرى ممن لم يوجه الملك إليهم الدعوة للقدوم، و يبدو أنه كانت لهم أسباب جيدة في النزوح و التعاون مع الصليبيين، أولها الهروب من الانتقام و التهديد الإسلامي خاصة و أنهم بادروا بالترحيب بالصليبيين و انيا جاذبية الأماكن المقدسة و أخيرا الامتيازات التي وعدهم بها ملك بيت المقدس، فقد منحهم جزءا كبيرا من المدينة و قد عرف هذا الجزء باسمهم زمن السيطرة الفرنجية «حي النصارى السوريين»، و كان أضعف جوانب المدينة تحصينا (الحياري، 1998، صفحة 52).

وقد ظل بلديين منذ تتويجه ملكا على بيت المقدس حريصا على تكوين مجتمع صليبي مترابط في مملكته، لذلك فقد أجاز للمسيحيين الشرقيين استخدام لغاتهم في محاكمه كما سمح لهم بأن يسيروا وفقا لعاداتهم و ليس لكنيستته أن تتدخل في شؤونهم الدينية فقد مثل المسيحيون الشرقيون أحد مصادر المساعدات العسكرية للجيش الصليبي خاصة الأرمن و الموارنة حيث أن قوة المشاة كانت تحوي أعدادا كبيرة منهم (سميل، 1985، الصفحات 96-97) .

يعتبر الموارنة (أنظر التعليق رقم 03) من أبرز فرق الطائفة المسيحية في بلاد الشام والتي ساهمت في تكوين المجتمع الصليبي، ظهرت منذ أوائل العصر الإسلامي (أنظر التعليق رقم 04)، و دفع المسلمون لهم إتاوة سنوية، حتى يلزموا جانب الحياد بينهم وبين الدولة البيزنطية و منذ ذلك الوقت استكان الموارنة و مالوا إلى العزلة التي طالما تميز بها سكان الجبال، كما اتخذوا من "قنوبين" الواقعة في الجبال الصخرية الوعرة مركزا للبطريك الماروني، ثم تحولوا عنها إلى بكركي في جوار مدينة بيروت (أحمد رمضان، 1977، صفحة 63) .

وقد استقر الموارنة جنوبي جبل لبنان الغربي (المسعودي، 1893، صفحة 153) واتخذوا من أوديته موطناً لهم ابتداء من أواخر القرن السابع الميلادي، ويرى البعض أن انتقالهم من نهر العاصي إلى جنوب لبنان يعود للاضطهادات التي لقيها الموارنة على يد مخالفيهم من الطوائف المسيحية الأخرى (محمد الحويري، 1979، صفحة 89)، كما استقروا كذلك في مدن جبيل و البترون وعكا وطرابلس، كما تواجد الموارنة أيضاً في مناطق أخرى عديدة كحمّاه و شيزر و معرة النعمان، و قد أشار إليهم الرحالة ابن جبير عند عبوره جبال لبنان في القرن 6هـ/ 12م (ابن جبير، د.ت، صفحة 201)، ثم أخذ الموارنة في الهجرة إلى الأقطار المجاورة فقصد فريق منهم جوار دمشق واتجه بعضهم إلى مصر واستقر بها، على الأغلب فضلوا الإقامة في جبال لبنان فاعتصموا بها ونمو وكثروا رغم ما أصابهم من النكبات في أوقات مختلفة (أحمد رمضان، 1977، الصفحات 63-64).

أما عن علاقة الموارنة بالفرنجة فقد كانت ودية منذ وصول الحملة الصليبية الأولى حيث كان للموارنة دور مؤثر وحيوي في انتصارات الصليبيين، فقدموا لهذه الحملة أدلاء يرشدونهم إلى الطرق والمعابر وممرات الجبال اللبنانية والمناطق الشرقية لبلاد الشام كما اشتركوا مع ريموند في إسقاط مدينة أنطربوس، ومحاصرة مدينة طرابلس، كما أرسلوا فرقة من النشابة المتطوعة إلى مملكة بيت المقدس، وأنظمت قوة منهم إلى الجيش الزاحف على القدس وقاتلت معه جنباً إلى جنب، وقد قدر عدد رجالهم الصالحين للقتال أواخر القرن 4هـ/ 10م بأربعين ألف مقاتل مدربين على مختلف الأسلحة المألوفة (حتي، د.ت، صفحة 141)

على العموم يمكن القول أن زمن الحروب الصليبية كان يمثل العصر الذهبي للموارنة، فقد كانوا أحسن حالا وأعظم شأنًا فكنايسهم وأديتهم ومدارسهم أزداد عددها، وتوفر لهم سبل الرزق، واحتلوا في الممالك التي شيدها الفرنجة المكانة الأولى بعدهم، وكانوا يقدمون على جميع الطوائف المسيحية ويتمتعون بالحقوق والامتيازات التي تمتع بها البرجوازية اللاتينية بما في ذلك حق امتلاك الأرض في المملكة المقدسة، لذلك نجد الموارنة قد سكنوا بيت المقدس إلى جانب الطوائف الأخرى (محمد الحويري،

1979، (صفحة 91)، و قد استمرت علاقات الود والمصالح المشتركة وثيقة طوال فترة وجود الصليبيين في الشرق .

ويعتبر الموارنة آخر من تبقى من أنصار عقيدة الطبيعة الواحدة (المذهب المونوفيزيتي)، و قد حرصت الكنيسة الغربية على استمالتهم لاعتبارهم من الكاثوليك المنشقين، حتى سنة 578هـ/ 1182م حين وافق الموازنة أمام بطريك أنطاكية على قبول سيادة البابا في روما، على شريطة أن يظلوا محافظين على شعائهم القديمة وتقاليدهم السريانية، بالإضافة إلى أنهم لم يتخلوا عن عقيدتهم التي تجعل للمسيح إدارة واحدة (كرد علي ، 1925، صفحة 231)

كما يعد الأرمن (أنظر التعليق رقم 05) من أبرز فئات النصارى الشرقيين التي أسهمت في تكوين المجتمع الصليبي في بلاد الشام حيث تعتبر الكنيسة الأرمنية من أقدم الكنائس الشرقية الكاثوليكية نشأة وطقسا ولاهوتا، و قد بقيت هذه الكنيسة مرتبطة بالأرض والشعب واللغة عبر العصور، وقد سكن الأرمن مناطق التماس بين التخوم الإسلامية والبيزنطية وذلك بدافع دعوة الإمبراطورية البيزنطية لهم ومنح ملوك أرمينيا وأمراءها ضياعا واسعة في آسيا الصغرى وخاصة في إقليم كبادوكيا الأمر الذي أدى إلى هجرة أعداد كبيرة من الأرمن إلى ذلك الإقليم (عبد السميع الجنزوري، 2001، صفحة 48)، غير أن توسعات السلاجقة في المنطقة جعلتهم يتجهون إلى إقليم قليقيا الجبلي جنوبا وحتى الرها وتل باشر وأنطاكية وأفامية شمال الشام أما في جنوب الشام فقد تسللت أعداد قليلة من الأرمن سكنوا خاصة بيت المقدس. (Grousset, 1995, p. 27)

وبوصول الحملة الصليبية الأولى إلى قليقية شوال 491هـ/سبتمبر 1097م رحب الأرمن بالصليبيين بمجرد أن أضحوا على مشارف أنطاكية وقدموا الدعم Tancred لتتكرر أثناء احتلاله السريع لسهل قليقية، وساعدوا الصليبيين في حصار أنطاكية وأمدوهم بالرجال والخيول والسلاح وحتى الغذاء كما أرشدوهم إلى طرق بلاد الشام وقبلوا ببلدوين البولوني حاكما للرها وتل باشر، ويبدو أن الأرمن قد أيدوا حكن اللاتين كونهم مسيحيين كاثوليك من جهة و أعداء للأتراك السلاجقة من جهة أخرى، كما وجد الصليبيون في الأرمن حلفاء طبيعيين لهم ضد السلاجقة، وحتى الدولة البيزنطية التي

اضطهدتهم طوال القرن الماضي قصد إجبارهم على التسليم بمبادئ الكنيسة الأرثوذكسية (كاهن ، 1995 ، صفحة 49).

في الحقيقة لقد قدم الأرمن في كثير من المناسبات أدلة دامغة على ولائهم واحترامهم الشديد لحكامهم اللاتين، فالتضحية التي أبدتها عصابة من الأرمن أنقذت بلدوين الثاني ملك بيت المقدس (511-526هـ/1171-1131م) و "Joscelin" جوسلين كونت الرها في عام 518هـ/1124م من قلعة خرتبرت kharput، تدل بوضوح على الدرجة التي يمكن للفرنجة الوثوق فيها بالأرمن، كما أثبتت حوادث أخرى عكس ذلك فعندما كانت الحملة الصليبية الأولى تحاصر أنطاكية كان الأرمن موضع رغبة لممارستهم التجسس لصالح الحامية السلجوقية، كما نقلوا المؤن إلى داخل المدينة ، ومن هنا يمكن القول أن الأرمن لم يكونوا محل ثقة مطلقة عند الفرنج زمن الاستيطان الصليبي، في بلاد الشام (سميل، 1985، صفحة 89).

كما سكن الروم الأرثوذكس، بلاد الشام منذ القديم وشاركوا في تكوين المجتمع الصليبي مع باقي الفئات السكانية الأخرى وقد انتشروا بكثرة في شمال بلاد الشام أين سكنوا إمارتي أنطاكية وطرابلس، ولم يكونوا إلا أقلية من الأقليات في المملكة اللاتينية و ليس من المؤكد أن يرجع الروم إلى أصل بيزنطي، لكنهم مجموعة من أهل الشام ويقال أنهم من أصل عربي، مرتبطين بالتقاليد البيزنطية وقد أدى ميلهم الطبيعي للبيزنطيين أن شك الصليبيين في إخلاصهم وولائهم، فأثناء سقوط بيت المقدس في أيديهم 493هـ/1099م طرد الصليبيون من كنيسة القيامة جميع الكهنة الشرقيين خاصة الروم الأرثوذكس، كما حل بطريرك لاتيني محل بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية في أنطاكية (براور، 1999، صفحة 80).

وأمام هذا التعسف من جانب الصليبيين تجاههم كان من الطبيعي أن ينشرح صدر الروم الأرثوذكس باسترداد صلاح الدين لبيت المقدس وإعادته كرسي بطريركيته لهم من جديد، الأمر الذي كان من شأنه زيادة معاداة الصليبيين لهم، نظرا لأنهم محط شك دائم في ولائهم وإخلاصهم لهم لدرجة أن بعضا من الصليبيين ظنوا أن هؤلاء الروم الأرثوذكس قدموا مساعدات سرية لصلاح الدين خلال حصاره لبيت المقدس، لذلك اتجه الصليبيون لمنع كل من يجيدون فنون القتال منهم من امتلاك السلاح مما يظهر لنا

مدى التخوف الذي كان عليه الصليبيون من محاولة تمرد هذه الطائفة عليهم، ومن الواضح أن فئة الروم الأرثوذكس كانت أبغض فئات المسيحيين الشرقيين إلى الصليبيين ولكن استبقوهم لمهاراتهم اليدوية وقيامهم بالأعمال الحقيرة التي أنف الصليبيين الغربيون القيام بها (محمد الحويري، 1979، الصفحات 95-96)

وقد عاش السريان جنبا إلى جنب مع العرب المسلمين في بلاد الشام واستخدموا اللغة العربية في حديثهم إلى جانب السريانية التي كانت سائدة آنذاك، كما استخدموا الخط العربي في الأعمال والتجارة وكافة أنماط الكتابة الأخرى فيما عدا الكتاب المقدس وغيره من الكتب الدينية التي يستخدمون في كتابتها الأبجدية اليونانية (براور، عالم الصليبيين، 1999، الصفحات 80-81)، ويذكر لنا فوشيه الشارترى أن السريان قد زودوا الجيش الصليبي بالمعلومات اللازمة عن المسلمين، خاصة أثناء حملة الملك بلدوين الأول على جنوب فلسطين 494هـ/1100م مما سهل المهمة على الجيش الصليبي الذي تتبع المسلمين في مخابئهم، وقتلوا منهم حوالي مئة رجل وبناء على هذه المعلومات تقرر الزحف نحو منطقة البحر الميت وما وراءه من بلاد العرب (الشارترى، 1990، صفحة 108).

ومن الطوائف المسيحية الأخرى في المجتمع الصليبي نجد أتباع المذهب النسطوري وهم من المسيحيين الشرقيين الذين ينتمون إلى أصل سرياني (حتي، د.ت، الصفحات 135-136)، وقد تمت إدانة هذا المذهب رسميا في مجمع إفسوس سنة 431م، ولعن من خلاله صاحبه الأسقف نسطوريوس وكل من اتبعه، ووفقا لهذا فقد عُد النساطرة هراطقة في نظر الصليبيين، وقد عانوا من الاحتقار والازدراء طوال فترة حكم الصليبيين لبلاد الشام، ونتج عن ذلك تدهور أوضاعهم المعيشية الاقتصادية والاجتماعية (محمد الحويري، 1979، صفحة 97).

وكانت أعدادهم قليلة في الشام وتواجدت مراكزهم الرئيسية في العراق وكان لهم في بيت المقدس رئيس أساقفة يتبع مقر البطريك الخاص بهم في بغداد، وغالبيتهم من الفلاحين أو من أرباب الحرف والصناعات كما اهتم بعضهم بالمجالات العلمية وكانوا يعيشون في طرابلس وعكا وبيروت وجبيل، وبهذا فقد كان دور النساطرة في الصراع الذي شب بين المسلمين والصليبيين حياديا، خاصة وأنهم كانوا أقلية مسالمة (كاهن،

1995، صفحة 99)، كما سكن اليعاقبة أماكن متفرقة من بلاد الشام وكانت الكنيسة اليعقوبية من الكنائس التي تؤمن بالطبيعة الواحدة للمسيح (المونوفيزيتية) (أنظر العليق رقم 06)، و كان لها أتباع كثيرون في جل الإمارات الصليبية و قد تمركزوا في شمال الشام أكثر من جنوبه، أما في بيت المقدس فقد كان لهم دير القديسة مريم المجدلانية الواقع في الجزء الشمالي الشرقي للمدينة (براور، عالم الصليبيين، 1999، الصفحات 83-85).

وقد عرف أفراد هذه الطائفة بتفوقهم العلمي الذي ظهر واضحا من خلال مدرستهم في مدينة طرابلس لدراسة الطب والتي وصل صدى شهرتها إلى أنحاء مختلفة من أوروبا آنذاك، كما عمل الكثير منهم بالتجارة والحرف الأخرى، وباعتبار اليعاقبة أشهر المنائين للكنيسة البيزنطية فقد لقوا معاملة ودية إلى حد ما من جانب الصليبيين ما مكّهم من الاحتفاظ بأديرتهم وكنائسهم (عبد العزيز سالم، د.ت، صفحة 225).

وقد انتشر المسيحيون الشرقيون عامة في المقاطعات و الأقاليم الريفية خارج المدن خاصة المحصورة بين بيت لحم وبيت المقدس ورام الله وحول غزة وقيسارية وعسقلان في جهة الجنوب وكان جُل سكان اللد من النصارى أيضا، كما تواجدوا في الخليل وأيلة، وعلى مقربة من جبل طابور في الجليل الأعلى على الحدود الشمالية لمملكة بيت المقدس، وكان أغلب سكان أنطاكية من الروم الأرثوذكس، وغلب على إمارة طرابلس اليعاقبة (المقدسي، 1909، صفحة 179).

وبعد أن حرر صلاح الدين بيت المقدس (583هـ/ 1187م) سمح للنصارى الشرقيين بالإقامة في بيت المقدس بعد أن التزموا بأن يؤدوا الجزية وأقام ببيت المقدس وأعمالها منهم أوف"، وتسلم المسيحيون الشرقيون رئاسة كافة الكنائس في المدن المحررة (الأصفهاني، 2004، صفحة 39).

من هنا يمكن القول أن الفرنجة الذين قدموا من غرب أوروبا من أجل نجدة العالم المسيحي الشرقي -نظريا- فإن قدومهم لم ينجم عنه مساعدة أيا كان من المسيحيين أو بالأحرى المسيحيين ذوي الطقوس اليونانية، فالقنة التي راهن المشروع الصليبي على انقاذها من الاضطهاد المزعوم من قبل المسلمين والذي روجت له الدعاية الصليبية فقد جاء في خطاب البابا أوربان الثاني في كليرمونت 488هـ/ 1095م " عليكم أن تسارعوا



لمد العون لإخوانكم القاطنين في الشرق والذين يحتاجون إلى مساعدتكم (الشارتري، 1990، صفحة 36)، إلا أن الصليبيين بعد استقرارهم في بلاد الشام أظهروا احتقارا للمسيحيين الشرقيين في الغالب و اعتبروهم هراطقة وغير جديرين بالاحترام، وهنا تبرز الدوافع الحقيقية التي قدم لتحقيقها الفرنج في الشرق والتي تغاير ما ذكره البابا أوربان في خطابه بكليرمونت (كاهن ، 1995، صفحة 99).

4.1 - اليهود :

لقد سكن اليهود بلاد الشام منذ القدم إلى جوار المسلمين و المسيحيين، و قد عاشوا زمن العصور الوسطى في كنف المسلمين وفي ظل حكمهم تمتعوا بمعاملة حسنة وسمح لهم بمزاولة شعائرتهم الدينية في معابدهم بحرية تامة، وخلال الدعوة للحرب - الصليبية حرصت الكنيسة على تأكيد أهمية بيت المقدس، و هو البلد الذي شهد صلب المسيح في العقيدة المسيحية، وبذلك توجهت الدعوة ضد أولئك القوم الذين على أيديهم صلب المسيح واضطهد إضافة إلى كثرة الفئات التي أخذت تقترض من اليهود الأموال لحاجتهم لها لكن بفوائد ربوية كبيرة في الوقت الذي حرمت فيه الكنيسة الربا (محمد الحويري، 1979، الصفحات 98-99).

وفي أواخر القرن 5هـ / 11م، بدأت التجمعات اليهودية في بلاد الشام تقل وتنحصر في مراكز محددة، و لم تزد عن عشر تجمعات موزعة على المدن الساحلية الكبرى وفي الرملة وطبرية والقدس ويبدو أن ذلك راجع لأنباء المذابح المرتكبة في الغرب ضد اليهود وقرب وصول الصليبيين إلى بلاد الشام، هذا إضافة إلى الخطابات والتحذيرات التي وصلتهم من إخوانهم في الغرب عن طبيعة هذه الحركة (بالار، 2003، صفحة 165).

وتلك الروح الصليبية المشبعة بكرهية اليهود، ما إن سقطت مدينة بيت المقدس حتى شرع الصليبيون في إبادتهم، ففر عدد كبير من اليهود منها خوفا من نفس المصير الذي لقيه إخوانهم، و قد تمركزت أغلب الجماعات اليهودية في عسقلان وصور وعكا لعدم تعرض هذه المدن للإبادة كمثيلاتها في باقي المدن الشامية، فقد استسلم يهود المدينتين طوعا للفرنج (زنسيما، 1997، صفحة 473).

وقد حزن الرحالة بنيامين التطيلي (555-569هـ/1160-1173م) (التطيلي ، 2011 ، الصفحات 125-132) لما شاهده من ضآلة عدد اليهود بفلسطين لما زارها حوالي سنة 566هـ/1170م، حيث ذكر أن عددهم لم يتجاوز المائتين في مدينة بيت المقدس كانوا يقيمون في حي مجاور لبرج داود، وكان بيت لحم أحد عشر يهوديا فقط، على أن مدينة دمشق لوحدها كان بها من اليهود ما فاق في العدد من نزل منهم في كل الإمارات الصليبية، وقد تميزت المستوطنات اليهودية عامة بقلّة كثافتها السكانية (كاهن ، 1995 ، صفحة 217).

لقد تنوعت أوضاع اليهود وأدوارهم في بلاد الشام بعد احتلال الصليبيين لها حسب الاقطاعية التي أقاموا بها، فقد كانت أكبر التجمعات اليهودية في مملكة بيت المقدس تقيم في مدينة عسقلان وصور وعكا، نظرا لأن تلك الجماعات خاصة المقيمة في عسقلان وصور لم تتعرض للإبادة والقتل على يد الصليبيين، كما هو الحال في المدن الأخرى وخاصة بيت المقدس (التطيلي ، 2011 ، الصفحات 91-92)

على أنه قد سمح لليهود بالإقامة والمعيشة في بيت المقدس منذ قيام المملكة اللاتينية، ولم تشهد أي مذابح ضدهم منذ تولّى بلدوين الأول عرش المملكة فقد أظهر تقاربا مع المسلمين واليهود وسمح لهم بأن يقيموا بالمدينة كرعايا، وأجاز لليهود أن يؤدوا اليمين على التوراة في حال دخولهم المحكمة، غير أن اليهود ضلوا مضطهدين طوال فترة تواجد الفرنج بالشام ولم يتحسن وضعهم إلا عندما انتصر المسلمون وانتزع صلاح الدين بين المقدس من أيدي الفرنج 583هـ/1187م، فسمح لليهود بدخول المدينة (رنسيما، 1997 ، صفحة 164)

خاتمة :

- ومن خلال هذه الدراسة نستنتج أنه قد اشترك في تكوين المجتمع الصليبي ببلاد الشام عدد كبير من الرجال والنساء من جنسيات أوروبية مختلفة و طبقات اجتماعية متباينة إضافة إلى السكان المحليين.

- وكانت أهم العناصر الأوروبية وأغلبها على الإطلاق العنصر الفرنسي حيث أطلق العرب على الصليبيين اسم الفرنجة لغلبة الفرنسيين على بقية العناصر الأوروبية، كما شارك

النورمان في الحملة الصليبية واستوطنوا إمارة انطاكية، أما الإنجليز و الألمان فقد كانت مشاركتهم هامشية.

- وقد سكن الإيطاليون المدن الساحلية منذ بداية التواجد الصليبي في بلاد الشام لتسهيل مبادلاتهم التجارية، كما حرصوا على أخذ أكبر قدر من الامتيازات فيما مقابل ما أسدوه للصليبيين من خدمات.

- غير أن النقص الحاد في السكان بالمجتمع الصليبي جعل ملوك بيت المقدس يفكرون في تعمير المملكة خاصة من النصارى الشرقيين لذلك أرسل إليهم الملك بلدوين الأول في القدوم خاصة الموارنة والسريان والأرمن والروم الأرثوذكس

- وقد انتشر المسيحيون الشرقيون عامة في المقاطعات والأقاليم الريفية خارج المدن وبعد أن حرر صلاح الدين بيت المقدس (583هـ / 1187م) سمح للنصارى الشرقيين بالإقامة في بيت المقدس بعد أن التزموا بأن يؤدوا الجزية" وأقاموا ببيت المقدس وأعمالها منهم أوف"، وتسلم المسيحيون الشرقيون رئاسة كافة الكنائس في المدن المحررة.

- وقد مثل المسلمون السمة الغالبة في العناصر الوطنية صاحبة البلاد الأصلية في المجتمع الصليبي، ومع توطن الفرنج في الشرق طُرد المسلمون من أراضيهم وحل محلهم الصليبيون الذين شاركوا في الحملة الصليبية الأولى و أصبحوا هم أسياذ الأرض.

- كان المسلمون يعيشون في مدن و أرياف بلاد الشام، و لكنهم في الوقت الذي كانوا يشكلون فيه أقلية في المدن الصليبية كان عددهم كبيرا في المراكز العمرانية الصغيرة ، فقد كان الريف كله مسلما.

- شارك المسلمون القاطنين بالمدن و القرى الصليبية في المقاومة إلى جانب صلاح الدين الأيوبي لإخراج الصليبيين من البلاد الاسلامية و التخلص من حياة العبودية التي كانوا يعيشونها .

- أما اليهود فقد سكنوا بلاد الشام منذ القديم إلى جوار المسلمين و المسيحيين، لكن قدوم الصليبيين و كراهيتهم لهم جعل أعدادهم تنحصر و تقل .

التعليق:

-التعليق رقم 01: الكوميونات: أصلها لاتيني "Communitas" وحتى نهاية القرن الحادي عشر كانت تعني مجموعات رجال الكنيسة ، و في القرن 12 م أصبح يطبق على الكنسيين والإقطاعيين و البرجوازيين الذين يسعون للحصول على الحكم الذاتي داخل المدن الصليبية وشراء الامتيازات والمعاهدات بالمال، والولاء واجب على الأعضاء للأسياد. (عبد الخالق البنا ، 2007، صفحة 20)

-التعليق رقم 02: يعتبر إقليم فلسطين في مجموعة من الأراضي الشبه صحراوية خاصة و ان تربته خفيفة وفقيرة لاسيما حول بيت المقدس، فلم تقم صناعة كبيرة بمدينة من المدن بل أن ملوك بيت المقدس في ذروة قوتهم لم يبلغوا في الثروة ما حازه كونت طرابلس أو أمير أنطاكية وكان المصدر الأساسي للثروة من الرسوم والضرائب ، ورغم امتيازات المدن الإيطالية بالمدينة المقدسة إلا أنها فضلت المدن الساحلية لأهميتها الاقتصادية أنظر: (سميل، 1985، صفحة 54).

-التعليق رقم 03: الموارنة: والموارنة طائفة من المسيحيين الكاثوليك الشرقيين، وهم فرع من فروع الكنيسة السورية القديمة و يعود أصلهم إلى عميدهم القديس (مارون) أو (مارو) لفظ من أصل سرياني معناه السيد الصغي، ومارون هذا راهب متعبد لا يُعرف عن حياته شيء كثير عاش بين أنطاكية و قورس و توفي سنة 410م، و إذا كان القديس مارون هو الزعيم الروحي و المعلم الأول لهذه الطائفة، فإن يوحنا مارون المتوفى سنة 707م، هو الزعيم الدنيوي و مؤسس كيائها القومي، و به تبتدئ سلسلة بطاركة الموارنة، في حين كان للموارنة أمراء يديرون شؤونهم الزمنية (حتي ، دت، صفحة 141).

-التعليق رقم 04: انفصلت الكنيسة المارونية عن البابوية في روما و أصبحت تتبع البطريرك الماروني في لبنان عقب مجمع القسطنطينية الثالث عام 680م الذي عقد للفصل في قول يوحنا مارون من أن للمسيح طبيعة واحدة و مشيئة واحدة منذ البدء، غير أن المجمع الذي كان قد عقده الإمبراطور قسطنطين الرابع إرضاء للبابا أجاثون بعدما فقد المراكز الرئيسية لمذهب الطبيعة الواحدة (الأريوسية) في مصر والشام لفتح المسلمين لهما، قرر طرد من يقول بالطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة وأقر أن للمسيح طبيعتين ومشيئتين، وبذلك انفصلت طائفة المارونية ولحقت بسابقتها من الكنائس المنفصلة (المسعودي، 1893، صفحة 153).

- التعليق رقم 05 : أطلق الأرمن على أنفسهم اسم "هاي" وعلى بلادهم اسم "هاستان" نسبة إلى الملك الأسطوري "هايك"، أما اسم "أرمن" وأرمينيا" فذلك ينسب إلى أرمن بن هايك كما جاء في التقاليد الأرمينية الشعبية و الأرمن ينتمون إلى الجنس الآري، وهم مزيج من شعوب البلقان وجبال الألب الذين نزحوا شرقا واختلطوا بشعوب القوقاز (بطرس و آخرون ، د.ت، صفحة 18) .

- التعليق رقم 06 : خلال القرن السادس الميلادي تأسست ثلاث كنائس للمونوفزتيين وهم: أنيسة القبطية في مصر و الحبشة و الكنيسة القومية الأرمينية و الكنيسة اليعقوبية في بلاد الشام و فلسطين (براور، 2001، صفحة 74) .

قائمة المصادر والمراجع

- 1- ابن جبير. (د.ت). الرحلة. مركز ودود للمخطوطات.
- 2- أحمد عبد الله الأحمدي. (2016). الجرائم و العقوبات في المجتمع الصليبي في بلاد الشام في القرن 6-7هـ / 12-13م. القاهرة: دار الأفاق العربية.
- 3- أحمد رمضان أحمد . (1977). المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية. القاهرة: مؤسسة روزاليوسف.
- 4- الأصفهاني. (2004). الفتح القسي في الفتح القدسي. دار المنار.
- 5- السيد عبد العزيز سالم. (د.ت). طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي. الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة للطباعة و النشر.
- 6- السيد الباز العربي. (د.ت)، الشرق الأدنى في العصور الوسطى (الأيوبيين). بيروت. دار النهضة العربية.
- 7- المسعودي. (1893). التنبيه و الإشراف . ليدن مطبعة بريل.
- 8- المقدسي. (1909). أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. ليدن. مطبعة بريل.
- 9- أنتوني بروج. (1985). تاريخ الحروب الصليبية. تر: أحمد غسان سبانو، دمشق. دار قتيبة.

- 10- بنيامين التطيلي . (2011). رحلة بنيامين التطيلي. تر: عزارا حداد، بغداد. بيت الوراق للطباعة و النشر و التوزيع.
- 11- بورشارد. (1995). وصف الأرض المقدسة. تر: سعيد عبد الله البيشاوي. عمان دار الشروق.
- 12- تيسير بن موسى. (د.ت). نظرة عربية على الغزوات الإفرنجية من بداية الحروب الصليبية حتى وفاة نور الدين. دار العربية للكتاب.
- 13- جوناثان ريلي سميث . (1999). الحملة الصليبية الأولى و فكرة الحروب الصليبية . تر : محمد فتحي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- 14- حاتم الطحاوي. (1999). الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام ، ط 1، القاهرة. عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية.
- 15- زينب عبد المجيد عبد القوي. (1996). الإنجليز و الحروب الصليبية. القاهرة. عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية.
- 16- ستيفن رنسيومان . (1997). تاريخ الحروب الصليبية. تر: السيد الباز العريني . بيروت: دار الثقافة.
- 17- سميل. (1985). فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر (1079-1193م). تر : محمد وليد الجلاذ . ط 1. دمشق. دار طلاس.
- 18- عبد الحافظ عبد الخالق البنا . (2007). أسواق الشام في عصر الحروب الصليبية. القاهرة: عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية.
- 19- علي السيد علي . (1996). العلاقات الاقتصادية بين المسلمين و الصليبيين. القاهرة: عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية.
- 20- علية عبد السميع الجتوري. (2001). إمارة الرها الصليبية. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتابة.
- 21- فوشيه الشارترى. (1990). تاريخ الحملة إلى القدس. تر: زياد العسلي. الأردن: دار الشروق للنشر و التوزيع.
- 22- فيليب حتي . (د.ت). تاريخ سورية و لبنان. تر: جورج حداد و عبد الكريم رافق. بيروت. دار الثقافة.

- 23- كلود كاهن . (1995). الشرق و الغرب زمن الحروب الصليبية. تر: أحمد الشيخ. القاهرة: سينا للنشر.
- 24- لويس أرشيبالد . (د.ت). القوى البحرية و التجارية في حوض المتوسط (500-1100م). تر: أحمد محمد عيسى. القاهرة. مكتبة النهضة المصرية.
- 25- محمد كرد علي . (1925). خطط الشام. دمشق. المطبعة الحديثة.
- 26- محمود محمد الحويري . (1979). الأوضاع الحضارية لبلاد الشام في القرن الثاني عشر و الثالث عشر ميلادي. القاهرة. دار المعارف.
- 27- مصطفى الحيارى. (1998). القدس زمن الفاطميين. عمان . مكتبة عمان.
- 28- ميشيل بالار. (2003). الحملات الصليبية و الشرق اللاتيني من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر. تر: بشير السباعي، القاهرة. عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الإجتماعية.
- 29- ناجلا محمد عبد النبي . (د.ت). المسلمون في مملكة بيت المقدس الصليبية في ضوء قوانين المملكة. الإسكندرية.
- 30- هانس ابراهارد ماير. (1985). تاريخ الحروب الصليبية. تر: عماد الدين غانم.
- 31- هايد. (1985). تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى. تر: أحمد محمد رضا، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- 32- وليام الصوري. (2003). تاريخ الحروب الصليبية . ج2، تر: سهيل زكار. بيروت. دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع.
- 33- يعقوب الفيتري. (1998). تاريخ بيت المقدس . ط1. الأردن. دار الشروق.
- 34- يوحنا فورزبورغ . (1997). وصف الأراضي المقدسة في فلسطين. الأردن . دار الشروق.
- 35- يوشع براور. (2001). الإستيطان الصليبي في فلسطين مملكة بيت المقدس . ط1. القاهرة. عين للدراسات و البحوث و الإجتماعية و الإنسانية.
- 36- يوشع براور. (1999). عالم الصليبيين. تر: قاسم عبده قاسم و محمد خليفة حسين. القاهرة. عين للدراسات و البحوث الإنسانية.
- 37- Grousset, R. (1995). l'épopée des croisades. paris: Librairie Academique perrique.